قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٩٣٣٣ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧١٥ ـ ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين

دار الشروق

بدأت الحياةُ الإنسانيةُ بهبُوطِ آدمَ وحـواءَ إلـى الأرضِ ، كـانت حوّاءُ تلدُ في البـطنِ الـواحـدِ تـوأمينِ ذكـراً وأُنثى . . فـإذا مـر عَـامٌ ولدتْ في البطنِ الثاني ولداً وبنتاً . .

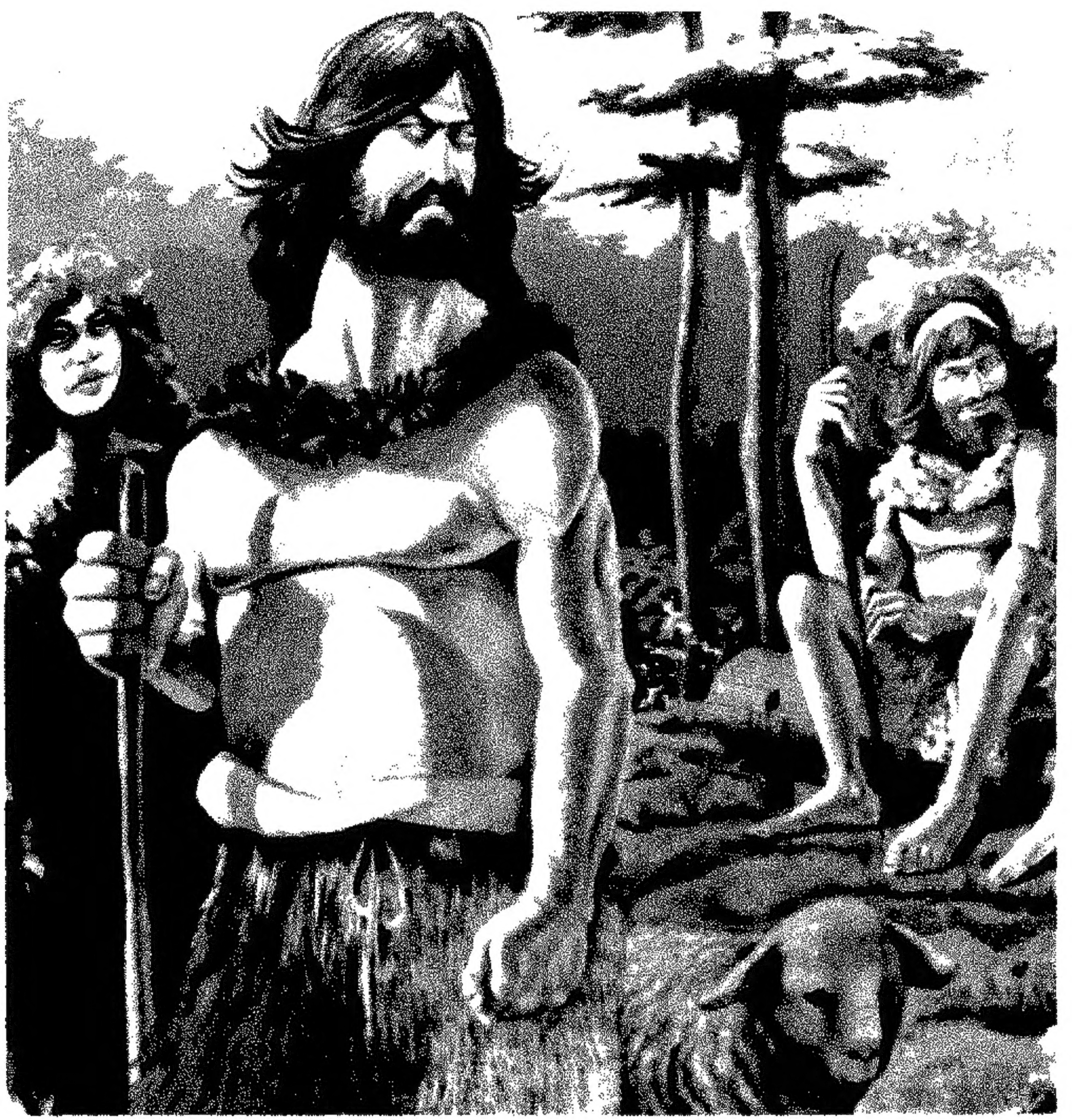
ولم يكنْ يَحِـلُّ للولدِ أن يتـزوّجَ من شَقيقتِـه التي وُلِـدتْ معــه في نفسِ البـطنِ ، إنما كـان يَستطيـعُ الزَّواجَ من ابنةِ البطنِ الثانيةِ ، باعدَ اللهُ بينهُما كما باعدَ بين الأقاربِ . .

في ذلك الزمـانِ البعيدِ ، حين كـان بالوُجـودِ آثنانِ من أبنـاءِ آدمَ . . وقعتْ هذه القصةُ لهما . .

تـزوجَ الولـدُ الذي وُلِـدَ في البـطنِ الأولِ بـالبنتِ التي وُلِـدَت في البـطنِ الثاني . . وتَزوجَ الـولدُ الـذي وُلِدَ في البـطنِ الثـاني بـالبِنتِ التي وُلِـدَت في البطنِ الأولِ . .

وكـان أحدُ الأخـوينِ غيرَ راضٍ عن زَواجِـهِ حيث كـان يـرى زوجـةَ الآخـرِ أجملَ من زوجتِه .





وبدأ هذا الأخُ يَحِسُّ بالكَراهِيـةِ نحو أخيهِ .

كـان آسم هذا الأخ قـابيـلَ . . أمـا الأخ الثاني فكانَ آسمهُ هابيلَ . .

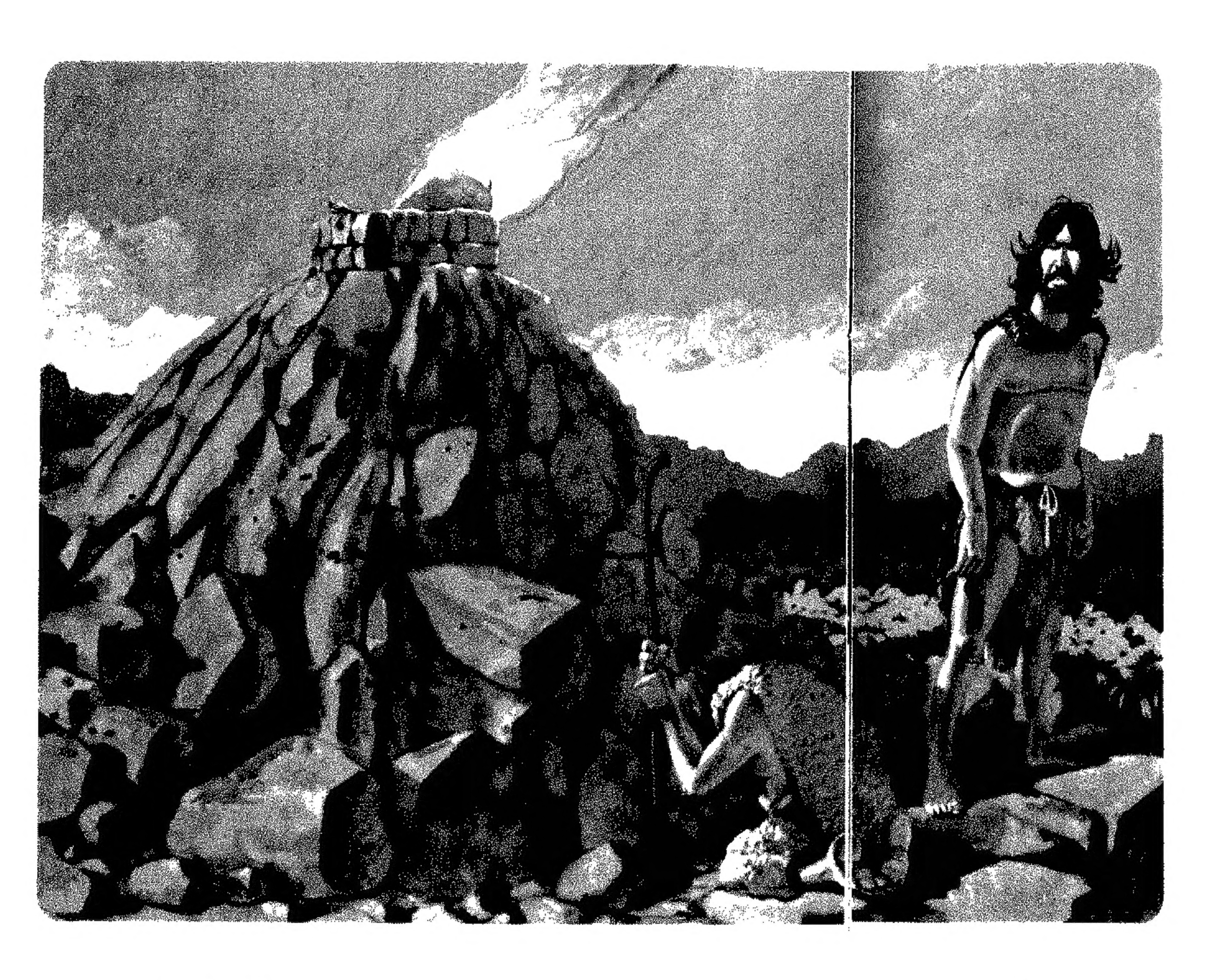
كـان قـابيـلُ قـويَّ الجسـدِ حـادَّ المَـلامِحِ ، ولم يكنْ راضيـاً عن حظِّه في الزَّواجِ ، وبالتالي فقد كـان يَحسِدُ شَقيقَه هابيـلَ . . وبقدرِ مـا كان قـابيلُ عَنيفاً وصارِماً كان هابيلُ وَديعاً وَلطيفاً ، وكـانتِ المشاعـرُ الداخليـةُ التي تملأُ قلبَ كـلِّ واحـدٍ منهمـا تَنعكِسُ على وجهِه وتَظهرُ على ملامِحِه . .

وذات يومٍ أمر آدمُ ولـديهِ أن يُقـدِّما قُرباناً لله . .

سألاهُ : ماذا يعني بالقُربانِ ؟

قـال آدمُ : القُـربـانُ هـديـةُ شُكـرٍ إلى الله . . إذا تقبَّلَهـا الله سُبحـانَـه وتعـالىَ ، فسوفَ تَنـزِلُ من السماءِ نـارٌ تَلتهِمُهـا . . وسيكـونُ هـذا إيـذانـاً بِقَبـولِ الله لهـا . . آنصـرفَ الأخـوانِ وجاءَ عيدُ الشُّكرِ . .

كـان قـابيـلُ غَنيـاً ولكنَّـه لم يكنْ كَـريمـاً . . وراحَ يُفكِّـرُ مـاذا يُقـدِّمُ للسماءِ . . وخشِيَ على كِباشِه وعُجولِه وقـرَّر أن يُقـدِّمُ بعضَ أعـوادِ القمـحِ الضَّعيفةِ التي قَدَّرَ بينه وبين نفسِه أنها لا تَصلُح لِصناعةِ الخُبزِ . . كان سَيرميها عـلى أَي حـالٍ . . لـم يـكـن لِيستَخدِمَها . . هكذا فكَّر قابيلُ .



أما هابيلُ فكان رغمَ فَقرِه كَريماً . . حيثُ قـرَّر أن يُقدِّم لِلقُـربـانِ أَسمنَ الكِباشِ .

وتوجَّهَ قابيلُ وهابيلُ إلى الجبلِ . . صَعِدا جُزءاً منه ووضعَ كلُّ واحدٍ منهما قُربانَه . .

وضعَ هابيلُ كِبشَهُ السَّمينَ . .

ووضـعَ قـابيـلُ حفنـةً من أعـوادِ القمحِ . .

وآنحـدرا من الجبـلِ وَوقفـا عنـد سَفحِه يَنتظِرانِ . .

هبطتْ من السماءِ نـارٌ أكلتْ قُربـانَ هابيلَ . . وظلَّ قُربانُ قابيلَ على حالـهِ لم يمسَسْه شيءٌ .

آنحنى هابيلُ يَسجُد لله . .

ووقفَ قابيلُ يُحدِّقُ في هابيـلَ . .

ومن أعماقِ رُوحِه تَصاعدتْ مَوجةٌ من الغضبِ والكَراهيةِ . .

وأَدركَ قابيلُ أن الله يُحبُّ أَخاهُ أكثرَ مما يُحبُّه . . أدركَ أن الله قد تَقبَّلَ من أَخيهِ ولم يَتقبلْ منه ، وبَدلاً من التَّوبةِ المُطهِّرةِ وإصلاحِ الذاتِ ، آحترقَ قلبُ قابيلَ بِكراهيةٍ عَميقةٍ نحو أَخيهِ . . وَوسوسَ إليه الشيطانُ أن يَقتُلَه . . كانتْ نَظراتُه على البُعدِ تَكشِفُ قاعَ رُوحِه التي تَموجُ بأفكارِ الشرِّ والجَريمةِ .

آنفردَ قابيلُ بشَقيقِه وسأَلَه : لماذا تَقبَّلتِ السماءُ قُربانَك ولم تَتقبَّلْ هَدِيَّتي . . قال هابيلُ : لا أعرفُ لماذا حدثَ ذلك ، ولكنِّي أعتقدُ أن قلبَكَ ليس صافياً لله ، لو صَفا قلبُكَ لله لَتقبَّلَ الله عَمَلكَ وقُربانَك . .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

قال هابيلُ : لا تَغضبْ يا قابيلُ ، ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . . لو نَدِمْتَ الآن وعُدتَ إلى الله فسوف يَتقبَّلُ منك .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقتُلَنَّك ﴾ .



قال هابيلُ : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ . . إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قابيلُ (ثائراً) : سأَقتُلُك ذات يوم . . ثق أنني فاعلٌ .

هابيلُ : لن أُقاوِمَك لو حاولتَ قتلي ، ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

آنصرفَ قابيلُ ثائراً ومضى يُفكِّر . .

أحسَّ أنه في حاجةٍ إلى أن يسيرَ

طَويلاً حتى يُهدِّئَ من نفسهِ الثائرةِ . . كان الشيطانُ يُفكِّرُ معه ويَسيرُ جِوارَه أو يَنبُضُ في دمائِه ويُوسوِسُ إليه ويُزيِّنُ له فِكرةَ القتلِ . .

قال قابيلُ لنفسهِ : لقد آن الأوانُ لإزاحتِه من طريقي . . إن التَّخلُّصَ منه سوف يُكسِبُني أرضَه وزوجتَه . .



ومضى قابيلُ يسيرُ حتى آنتهى إلى شجرةٍ يرقُدُ جِوارَها حِمارٌ ميتٌ . . كان الحِمارُ قد مات منذ قليلٍ . . وهبطتِ الطيورُ الجارِحةُ عليه من كلِّ آتجاهٍ ومضتْ تَلتهِمُ لَحمَه . .

بعد ساعاتٍ قليلةٍ كان الحمارُ قد تحولَ إلى هيكلٍ عظميٍّ . . ووقفَ قابيلُ يرقُبُ المشهدَ . .

إن الصراعَ يَجري في كلِّ مكانٍ على الأرضِ ، فلماذا لا يَنقضُّ على شَقيقِه كما تَنقضُّ هذه الطيورُ الجارِحةُ على المأدُبةِ التي هيّأها موتُ الحمارِ . . .

آقتربَ قابيلُ أكثرَ من الحمارِ فطارتِ الطيورُ مُبتعدةً عنه . . تأمَّلَ قابيلُ الحمارَ . . .

تأمَّلَ فكَّه . . ألا يصلُح هذا الفكُّ سلاحاً يَتخلَّصُ به من أخيه ؟ مد يدَهُ وآنتزعَ فكَّ الحمارِ من الهيكلِ العظميِّ وحملَه ومضى به .

قال لنفسِه : من يَدري . . قد يُخلِّصُني هذا الفكُّ من أخي !

فكَّر قابيلُ طَويلاً في جَريمتِه قبل أن يَرتكِبَها . . كان يعلمُ أن شقيقَه هابيلَ يحبُّ الطبيعةَ ، وكثيراً ما ينامُ في كهفٍ صخريٍّ تُطِلُّ فَتحتُهُ على الحَدائق .

قال لنفسِه : سوف تَحينُ فُرصتي

حين يدخلُ الكهفَ وينامَ . .

وجاءَ يومُ الجريمةِ . . ودخلَ هابيلُ إلى الكهفِ ونـامَ فيه كعـادتِـه . . كـان هـابيـلُ مُـرهَقـاً لم ينمِ الليلَةَ السـابقـةَ كُلَّها ، سهِرَ فيها إلى جوارِ زوجتِه التي كانت تتألَّمُ وتَتهيَّأُ لميلادِ طِفلِها الأول ، وفي الصَّباحِ المُبكـرِ صحبَ زوجتَـه وذهبَ بهـا إلى أُمِّهما حـواءُ ، لكي تلدَ عندها . . ثم ولدتْ ذكراً وبنتاً جميلينِ فيهما صفاءُ هابيلَ . .

آستراحَ هابيلُ أخيراً وجاءَ إلى كهفِه الأثيـرِ ، وسُـرعـانَ مـا آستغـرقَ في النومِ . .

آنتـظرَ قابيـلُ حتى تأكـدَ أن شقيقَـه نـامَ ، ثم تسلَّلَ إلى الكهفِ وهو يُشـدِّدُ قَبضَتَه على فكِّ الحمارِ . .

كان ذهنُه يَموجُ بتيَّارٍ من الشـرِّ الذي يَهُـزُّه هـزّاً رغم صـلابتِـه . . وكـان الشيطانُ قد أقنعَه بفكرةِ القتلِ وسوَّلَها له حتى آنطبعتْ في قلبِهِ . .

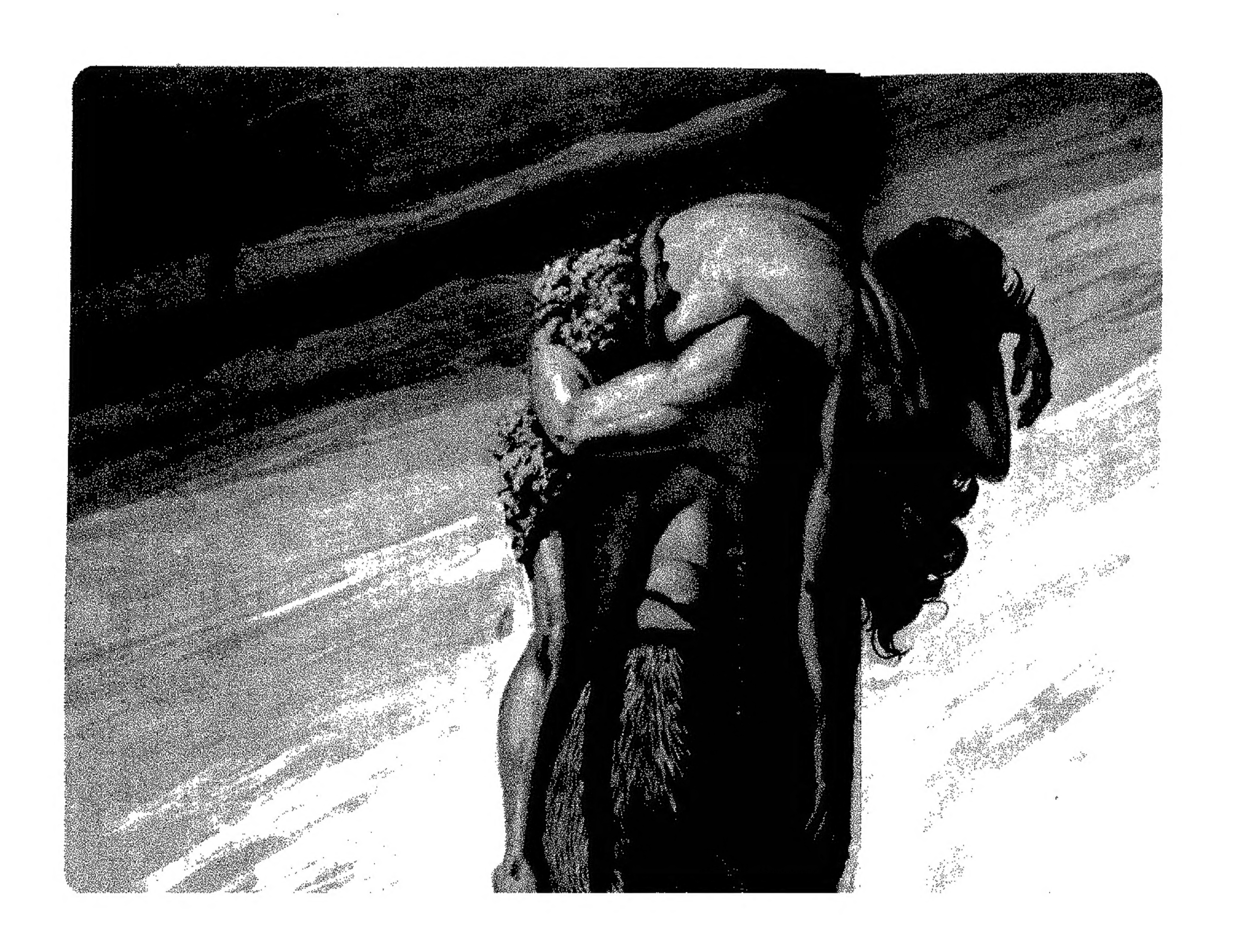
وآقتربَ الشـرُّ المسلَّحُ من الخيـرِ النائمِ ، آستغلَّ الشرُّ فرصةَ نومِ الخيرِ ورفـعَ يَده وهـوَى بهـا على شقيقِـه . .



وتـدفَّقَ دمُ الشقيـقِ يَجـري عـلى الأرضِ . .

مات هابيلُ . .

سـكـنتْ حـركـتُـه وآستسـلَمَ للموتِ . . أَحسّ قابيـلُ بالفـزعِ حين هَمدتْ حركةُ أخيهِ تماماً وآستلقَى على ظهره ودمُه ينـزفُ . . توقَّفَ قـابيلُ عن ضربِ أخيِه وهزهُ فوجـدَه لا يَتحركُ . . آمتلأ قلبُه بخـوفٍ باردٍ ولم يعـرفْ ماذا يفعـلُ . . ناداهُ فلم يُجبْـه . . وحـدَّثـه فلم يَلتفِتْ إليه . . وأَدركَ قابيلُ أنه قتلَ شقيقَه . .



كـان هابيـلُ أولَ إنسانٍ يمـوتُ على سـطحِ الأرضِ ، وكـان مـوتُـه أولَ جـريمـةِ قتـلٍ تقـعُ في الـوُجـودِ الإنسانيِّ . . لَم يكن قد ماتَ قبلَ ذلك من البشرِ أحدٌ . .

وحارَ قابيلُ ماذا يفعلُ بجسدِ شَقيقِه الذي سكنتْ حركتُه ، وحارَ قـابيلُ أين يُخبِّئُه ويُخفي جَريمتَه . .

وهكـذا حملَ قـابيـلُ جسدَ شقيقِهِ الميِّت هـابيلَ ومضى يَسيرُ به . . أرادَ أن يُخبِّئَهُ في مكانٍ بعيدٍ حتى لا يصلَ إليـه أحـدٌ . . لم يجدْ مكـانـاً يصلُح لذلكَ . .

ظـلَّ يسيـرُ حتى تعِبَ ، ثم مـزّقَ الهـواءُ صوتَ طـائرٍ يصـرُخُ ، أفـزعتْهُ الـصـرخـةُ ومـلأتْ نفسَـه بشُـؤْمٍ مجهولٍ . .

التفتَ القاتلُ فرأى في السماءِ غُراباً يـطيـرُ وهـو يُمسِكُ بمنقـارِه شيئـاً لم يتبيَّنْه .

وزادتْ حيـرتُـه واشتـدَّ إحساسُـه بـالفزعِ . . وأحسَّ بثقـلِ أخيه كـأنـه يحملُ جبلاً ضخماً .

وقف قـابيـلُ ووضـعَ شقيقَـه على الأرضِ وهـو لا يعـرف مـاذا يفعـلُ أو كيف يتصرَّفُ . .

كـان حائِـراً تَمـوجُ نفسُـه بمشـاعِـرَ مُـختـلِطَةٍ من الـخـوفِ والـرُّعـبِ والقلقِ . .

ثم اقتربَ الغُرابُ فرآهُ قابيـلُ يحمِلُ غُـرابـاً ميّتـاً . . وضـعَ الغُـرابُ الحيُّ شقيقَـه الميتَ على الأرضِ وسـاوَى أجنحتَـه وحفـر لـه حُفـرةً بمنقـارِه وأقـدامِه ، حتى إذا صنـعَ لأخيهِ لحـدَه

وقَبرهُ ، رفعهُ بِمنقارِه وَوضعهُ بِرفقٍ في قبره . ثم صرخَ صَرختينِ قَصيرتينِ كأنه يَبكيه وعادَ يهيلُ عليه الترابَ . . بعدها طارَ في الجوّ وهو يَصرخُ . .

وأدركَ قابيلُ أن الله بعثَ إليه من يُعلِّمُه دَرسينِ معاً في وقتٍ واحدٍ . .

أما أحدُ الدَّرسينِ فقد عَرفَه قابيلُ على الفورِ . .

أما الدرسُ الثاني فقد عَرفَه قابيلُ بعد ذلك بزمنٍ . .

لقد عجزَ قابيلُ وحدهُ عن دفنِ أخيهِ رغم أنه قتلهُ ، ولولا الغُرابُ ما عرفَ كيف يُواري جسَدَهُ الهامد . .

قال لنفسهِ : لم أعرفْ كيف أدفُنُ أخي ودفنَ الغُرابُ أخاهُ . .

كان هذا هو الدَّرسُ الأولُ الذي تَعلَّمه قابيلُ . .

عَرفَ أنه كان أقلَّ في ميزانِ الرحمةِ من الغُرابِ . . والأصلُ أنه سيدُ الكائناتِ .

ونهضَ قابيلُ وحفرَ حُفرةً لأخيهِ ودَفنهُ فيها ، ثم تذكّر صُراخَ الغُرابِ الحيِّ على الغُرابِ الميِّتِ فمزَّقَهُ النَّدمُ على جَريمتِه فأصبحَ من النادِمينَ .

قال وهو يَنهارُ على الأرضِ : ﴿ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ !

انصَرفَ قابيلُ مُمتَقِعَ الوجهِ مُترَعَ القلبِ بالنَّدمِ والهُمومِ .

وجاءَ المساءُ ولم يعُدْ هابيلُ . .



ومرَّتِ الأمسِياتُ واللّيالي ولم يعُدْ هابيلُ . .

سأل آدمُ قابيلَ : أين ذهبَ هابيلُ ؟

قابيلُ : لست أعرفُ أين ذهب . .

وقـرأ آدمُ في عينيٌ آبنـهِ خـطيئَتـه . . وسأَلَه :

ــ قـابيلُ . . مـاذا فعلتَ بـأَخيكَ هـابيلَ ؟ إن الله لم يَتقبـلْ قُربـانَك . . ماذا فعلتَ بأَخيكَ ؟

وتذكَّر قابيلُ قُـربانَـه الذي تَجـاوزَتْهُ السماءُ . . تذكَّر كلِماتِ هابيلَ له . .

لقد أَشارَ يـومئذٍ إلى النَّـدمِ . . حثَّه عـلى النـدمِ حين رفضتِ السمـاءُ قُربانَه . .

لو أَنه عرفَ ندمَ التَّوبةِ الجميلِ على الـذُّنوبِ لمـا أَهلكَـه نـدمُ الخَطيئـةِ الفاجعِ . .

وكـانَ هذا هـو الدرسُ الثـاني الذي تعلّمهُ قابيلُ . .

آنتهى الأَمـرُ ولم تعدْ لهـذا الدرسِ قيمةٌ . . صار قابيلُ قاتلاً . .

آنتهى الأمرُ وفقـدَ طُمـأْنينـةَ نفسِـه وتَمـزَّق سلامُـه الـدَّاخليُّ وأَصبحَ من النادمين . . صارَ الندمُ هوخُبْزَهُ اليوميّ المُـر الذي قـدرَ عليـه أن يـأْكُله طِوالَ حياتِه . .



خسِرَ قابيـلُ نفسَه بِسببِ جَـريمتِهِ ، وأَدركَ أن كـلَّ مَكاسِبِه من جـريمَتِـه لا تُساوي خِسارةَ نفسه . . أدركَ أنه من أَهـلِ النـارِ . . وأَدركَ أن شقيقَـه من أهـلِ النعيمِ . . وزادَ إحسـاسُـه بالمرارةِ . .

وعرفَ آدمُ بما حـدثَ . . وزادَ ندمُ قابيلَ . .

في نفسِ الـوقتِ . . كـان أَبنـاءُ الشَّهيدِ هابيلَ يَكبُرونَ في السِّنّ . .

وكـان هذا إشـارةً إلى أَن الدُّنيـا مـا زالتْ تنجبُ الخيرَ وإن ملأَها الشرُّ . .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ
يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝
لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ
فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ
نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا
يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ
أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ

صدق الله العظيم

